الفصل الرابع

- المعاملات المالية والتجارية .
- العملة .
- السفاتج – الصكوك – الحوالات .
- المكوس (المغارم) .

المعاملات المالية والتجارية

- **العمـــلة :**

تعتبر السكة الواجهة الحقيقية لأي نظام اقتصادي ، إذ يتوقف على قيمـــة هـــذه السكة ، وقوتها الشرائية في الحكم على مدى الإستقرار الاقتصادي للدولة وحظها من الرفاهية والتقدم ، ويعرف ابن خلدون السكة بأنها " الختم علـــى الـــدنانير والـــدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع جديد ينقش فيه صوراً أو كلمات مقلوبة ويضرب بهـــا على الدينار أو الدرهم ، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مســـتقيمة بعـــد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخـــرى وبعـــد تقـــدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا[١] .

واتخذت الدولة الموحدية عند قيامها عملة نقدية مميزة لها . فلقد كان الموحدون هم أول من اتخذ الشكل المربع لعملتهم ، فيشير" أبو الحسن على بن يوسف " إلى أن ابن تومرت اصدر عملة نقدية تسمى الدرهم المركن فيقـــول : " وذلـــك أن صـــاحب الدرهم المركن هو أبو عبد الله المهدي القائم بأمر الموحدين ، وكانت الـــدراهم قبـــل ظهور الدولة الموحدية كلها مدورة ، فأمر المهدي أن يكون دراهمه مركنة "[٢] .

ويرجح بعض المؤرخين أن يكون أول من سك العملة الموحدية هو الخليفـــة " عبد المؤمن بن على " [٣] والتي عرفت " بالمؤمنية " ولكن يصعب تحديد السنة التـــي بدأ فيها سك عملة خاصة وأنها لا تحمل تاريخ الضرب[٤] ، بل يرجع سك العملة إلى عبد المؤمن بن على لأن دولة المرابطين كانت قائمة عند موت ابن تومرت .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ١ ص٣١٧

(٢) أبو الحسن على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ص٤٩، أبو بكـــر ابن على الضهاجى : البيذق " أخبار المهدي بن تومرت " ص ٤٧ ، ابن أبى دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ص ١١٢ ، ابن خلدون : المقدمة ج١ ص٢٦٢، عيسى بن الذيب: التجارة في عصر دولة المرابطين (رسالة ماجستير) ص ٢٥٣ .

(٣) عبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مروان، ولد بمدينة تاجررت بالمغرب الأوســـط، فلما توفى المهدي اتفق الجميع على خلافة عبد المؤمن فتم له الأمـــر ســـنة ٥٢٤هـــ/١١٢٩م وكانت وفاته برباط وهو في طريقه إلى الأندلس. (خير الدين الزركلى: الأعلام ج ٤ ص ٣١٩)

(٤) السلاوى الناصرى : الاستقصا في دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ١٢٧

Lavoix :catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliotheque national .paris 1891 .P. 293 :299

وقد كتب " عبد المؤمن بن على " اسم المهدي " على عملته وقد ظلت منقوشة حتى أيام " إدريس المأمون "[1] . تاسع خلفاء الموحدين الذي أنكر امامة " المهدي " وأمر بإزالة اسمه من على السكة وعدم الدعاء له في الخطبة سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م[2] فأزال من السكة عبارة " المهدي إمامنا " وحل محلها " القرآن إمامنا ". وفى العملة الرسمية كتب عبارة " القرآن كلام الله "[3] أما الخارجون على طاعة الموحدين في عصر الضعف فقد كتبوا عبارة " الله ربنا محمد رسولنا العباس إمامنا " أو " لا اله إلا الله محمد رسول الله والأمر كله لله ".

وقد ضرب الخليفة " يوسف بن عبد المؤمن "[4] . عملة باسمه تعرف " باليوسفية " كما كانت الدنانير " اليعقوبية " نسبة إلى يعقوب المنصور[5] .

ولقد استخدم الموحدون إلى جانب العملات الذهبية والفضية أنصاف الدراهم التي عرفت " بالمؤمنى " [6] ، كما سك الموحدون على أيام

---

(١) هو إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ويكنى بالمأمون ، وقد كان والى اشبيلية . واستعان بملك قشتالة ودخل مراكش فبايع له الموحدون . وغير ما كان عليه الموحدون من الخطبة والسكة . وقد كثرت الثورات في أيامه وخرجت الأندلس عن حكمة ، وثار أخوه " عمران " في مدينة سبتة فخرج إليه بجيش كبير وبينما هو محاصر لسبتة بلغه أن " يحيى الناصر " استولى على مراكش فقفل راجعا فتوفى عند وادي أم الربيع . (مجهول : الحلل الموشية ص ١٦٣ – ١٦٤)

(٢) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ، قسم الموحدين ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ، مجهول : الحلل الموشية ص ١٦٤ – ١٦٥.

(٣) ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، دار ليبيا للنشر بنغازي ١٩٦٩م ص ٤٤ – ٥٠ .

(٤) هو يوسف بن عبد المؤمن أبو يعقوب ثاني خليفة موحدي ٥٥٨هـ / ١١٦٢م وكان ملماً بشئون السياسة والرعية ، وكان عارفا للفقه وميالا للحكمة والفلسفة ولذا استقدم ابن طفيل وأبو الوليد بن رشد وخاض العديد من الحروب مع النصارى وتوفى في الجزيرة الخضراء بعد أن جرح في حصاره لمدينة " شنترين " ودفن في تينملل بجانب قبر أبيه . (الزركلى : الإعلام ج ٩ ص ٣١٨)

(٥) هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (أبو يوسف المنصور) ولد بمراكش وبويع بعد وفاة والده سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) وكان معه في موقعه شنترين " ، وقد خاض العديد من الحروب استطاع فيها أن يشتت شمل ابن غانية ، وقد عقد ملك طليطلة الفونسو معاهده صلح استمرت خمس سنوات وانتصر على النصارى في موقعة " الارك " توفى في سلا . (الزركلى : الإعلام ج ٩ص ٢٦٧ –٢٦٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٧٧م ج ٧ ص ١٢

(٦) ألفرد بل : الفرق الإسلامية ص ١٤–١٥

" عبد المؤمن بن على " عملات اصغر لتسهيل التعامل ، منها الربع والثمن والخراريب[1] .

ولقد سك الموحدون بعض العملات الزائفة المعروفة باسم " الجشمة "(العملة الرديئة) وكانوا يصنعونها من النحاس ويطلقون عليها زيفاً اسم الدينار الذهبي[2] .

أما وزن العملة الموحدية فكان الدينار القديم صغير الحجم وخفيف الوزن فكان لا يتعدى " الجرامين وخمسة وثلاثين في المائة من الجرام " فأمر المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن " بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس الدينار الجديد بوزن " أربعة جرامات وسبعين في المائة من الجرام "[3] . فيقول ابن

---

(١) وقد أشار على " عبد المؤمن بن على " بسك العملات الصغيرة هو يحيى بن عبد العزيز ملك بجاية في المغرب الأوسط من دولة بن حماد وهو آخر ملوك بني حماد الصنهاجيين الذي سير له عبد المؤمن بن على حملته ، فلما وصلت الحملة إلى الجزائر خرج نائب يحيى بن عبد العزيز إلى بونة ومنها إلى قسنطينة تاركاً بجاية فدخلها الموحدون. وامن يحيى بن عبد العزيز على حياته وأهله وعاش في مراكش في تكريم وعطاء حتى وافته المنية. فقد أشار على عبد المؤمن بن على بسك العملات الصغيرة ، حيث يتعذر الإنفاق لقلة العملات الصغيرة " فقال يحيى بن عبد العزيز " أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة ، وعبيدي في كل يوم يشكون إلى ما يلقون من ذلك ، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف ، وذلك أن عاداتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب،فيستريح الناس في هذا وتجرى هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم". (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ، ابن عذارى المراكشي : البيان ، قسم الموحدين ص ٤٦، مجهول : الحلل الموشية ص ١٤٨ – ١٤٩)

(٢) فقد ضرب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ – ٥٨٠هـ / ١١٦٣ – ١١٨٤م) ٣٦ ألف دينار من الصفر (النحاس) ناقصة العيار مصنوعة من النحاس مموهة لما طالبه العرب الهلالية (ينسبوا إلى هلال بن عامل بن صعصعة ، وبنو عمومتهم بنو سليم بن منصور بن قيس عيلان بن مضر . وصلوا لبلاد المغرب من برقة " ٤٤٣هـ/١٠٥١م " وكان عددهم في المغرب ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) كانوا تحت قيادة يحيى بن الرياص شيخ بني رياح أحد فروع بني هلال، وقد سيطروا على طرابلس ودخلوا في حروب في بلاد المغرب . وقد وصفهم ابن خلدون لدخولهم افريقية " كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه " بفداء أخوية بعد أن وصله خبر أسرهما سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٧١ ، ابن عذارى المراكشي : البيان ، قسم الموحدين ص ١٠٩ ، ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٣٩٣ حاشية (٤) ، ابن خلدون : العبر : ج ٤ ص ١٣١)

(٣) على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٤٩ حاشية (١)

عذارى :" ولم تزل همة المنصور تتبع جزئيات المملكة بالتفخيم ، ويجيل النظر فيما بقى منها للتكميل والتعميم ، فرأى أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية ، وان جرمه يقل عما عارضة من المناظر الفخمة الجارية ، فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه، فجاء من النتائج الملوكية والاقتراعات السرية جامعاً بين الفخامة والنماء الطيب وشرف الانتماء"[١] .

وكان الدينار الموحدى يضرب في مدينة فاس في مركز السك من الدار الواقعة بالقصبة القديمة، وكانت تمتاز بالجودة وصحة الوزن[٢] ، وكذلك السكة في مراكش[٣]. وتجدر الإشارة إلى انه كان يوجد نسختان تختصان بالسكة إحداهما تسمى " الإمام " وهو اسم يطلق على النسخة الأساسية لدار السكة ، وتعتبر القدوة التي يتخذ بها في حالة حدوث خطأ أو غش في السك ، وهى لا تخرج من دار السكة إلا للضرورة . والأخرى تستعمل في اختبار الأوزان المستعملة عند التجار والباعة من أهل الصناعة مرة كل أسبوع أو كل شهر[٤] ، فإن حدث أي لبس أو اختلف الوزن في صنج احدهم وجب عليه الرجوع للنسخة الأصلية " الإمام " . ولذا كان من واجب ناظر دار السكة المحافظة عليها وعدم إخراجها مع الاهتمام بالنسخة الأخرى وكذلك " الصنج "[٥] المستعمل لديه في الأوزان خوفا من ضياع أحدهما .

وكان الجهاز الإداري لدار السكة في المغرب الأقصى وخاصةً في مدينة فاس يتكون من (الناظر والشهود والفتاح)[٦] . وكانت العملات تنسب إلى البلاد التي

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، القسم الموحدى ص ١٨٢ – ١٨٣

(٢) على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٣٧ ، الجزنائى : جنى زهرة الاس ص ٣٣، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٥٧ ، الونشريسى : المعيار ج ٥ ص ١٨٩ .

(٣) محمد المنونى : ورقات عن حضارة المرينيين ص ١٣١ .

(٤) على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٤٨ – ٤٩ .

(٥) الصنج : هي قطعة من الزجاج في حجم الدرهم أو اكبر أو اصغر يرسم على احد وجهيها كتابة بارزة تدل على وزنها . وهو وزن الدنانير أو الدراهم الشرعية، وفى اغلب الأحيان يكتب عليها اسم الأمير أو الوالي الذي أمر بضربها، وبعد تقدير وزنها الثابت والمعمول به رسميا تطبع في دار الضرب ثم توزع على الصيارفة والتجار حتى يختبروها ،.وقد تنوعت " الصنوج " بتنوع الأغراض المستعملة لها ، فمنها الخاص بالمجوهرات ، وأخر للأدوية وكذلك هناك صنج للعطور ، ويتم التعرف عليهم من الكتابة المطبوعة عليهم (حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، مكتبة المنار ، تونس ١٩٦٤م ج١ ص ٤١٩ – ٤٢٠)

(٦) الفتاح : يعنى الذي يضع الرسم الذي ستسك عليه العملة ويكتب نصها . (محمد المنونى : ورقات عن حضارة المرينيين ص ١٣٢)

سكت فيها فيقال الدرهم التلمساني ، والسبتي والقرطبي إلى غير ذلك[1]. فقد ورد عند " السبتي "[2] ذكر دار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة مدينة سبتة ، وكذلك وُرد في الدوحة المشتبكة إشارة إلى دار السكة بسجلماسة وأمينها وشاهديها[3] . فقد كان الدرهم الموحدي يضرب في مدن كثيرة في المغرب الأقصى[4] .

وكانت العملة السائدة في المغرب الأقصى قبل عصر الموحدين العملة المرابطية . فالدينار المرابطي يسك من الذهب الذي كان يأتي من السودان[5] .

وبعد معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م)[6] نقش على الدينار المرابطي " لا اله إلا الله محمد رسول الله " وتحتها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[7] . وكتب

---

(١) علي بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٤٨ .

(٢) السبتي : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار ص ١٥ .

(٣) علي بن يوسف الحكيم : نفس المصدر ص ٣٧ -٣٨

(٤) علي بن يوسف الحكيم : نفس المصدر ص ٤٩ . وفي عهد الخلفية الموحدي الرابع الناصر محمد (٥٩٥- ٦١٠هـ / ١١٩٩ – ١٢١٣ م) اعد دار ضرب النقود من الدنانير بقصبة فاس حيث تم بناءها سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م واعد بها مودعاً للأموال ولطوابع سكتها ، وغالب ما كان يسبك بها الذهب حيث يتم سك الدنانير " أما الدراهم فكانت تضرب في مختلف مدن دولة الموحدين ، وكان الناس يتعاملون بكل سكة منها . (الحسن بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٥٠ ، محمد المنوني : حضارة الموحدين ص ١٧٢)

(٥) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٢٤

(٦) موقعة الزلاقة : اعتزم يوسف بن تاشفين وقومه المرابطين ، كانت تحدوهم نزعة الجهاد في سبيل الله . لمواجهة ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة واستنجاد ملوك الطوائف بيوسف ابن تاشفين واستقبال المعتمد بن عبادة ليوسف بن تاشفين، ووصلت إلى الفونسو السادس ملك قشتالة، أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة ، وحاول الفونسو خديعة المسلمين ، وانهزم الجيش النصراني ولم ينج سوى خمسمائة فارس وملك قشتالة فروا وكان يوم الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة في انتصاره على النصرانية . وتختلف الروايات في تحديد تاريخ المعركة. فابن خلكان وابن الأثير ٤٧٩هـ والمراكشي وابن بن زرع ٤٨٩هـ (مجهول : الحلل الموشية ص ٣٥ ، ٣٨ ، المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٩٦ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٥٢ ، الحميري: الروض المعطار ص ٩٢)

(٧) هو يوسف بن تاشفين ابن عم أبو بكر اللمتوني الذي وكل شئون المغرب لابن عمه يوسف ابن تاشفين بعد وفاة عبد الله بن ياسين واختط مراكش ٤٥٤هـ/١٠٦٢م . (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٨٩ ، ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٤)

في الدائرة ومن يبتغى غير ذلك فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . أما الوجه الآخر من الدينار كتب " اسم الخليفة العباسي " مما يعنى أن المرابطين كانوا حريصين على أن يظهروا بمظهر التابعين للخلافة العباسية في بغداد[١] .

أما الدرهم المرابطى فكان مدوراً ووزنه درهم وربع سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية ، وكانت تضرب في مدينة مراكش بدار الضرب التي إنشأها يوسف ابن تاشفين سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧٧م[٢] .

- **أنواع المسكوكات :**

لم تكن النقود في المغرب الأقصى تضرب إلا من الذهب والفضة .

فكان الدينار يسك من الذهب[٣] . أما الدرهم فكان يسك من الفضة[٤] .

الدينار الذهبي : كان يزن ٨٤ حبا من حبوب القمح أو الشعير[٥] . وكان متوسط وزنه بالجرام (٤,٥٦) أي ما يساوى تسعة وستين درهماً صغيراً[٦] .

الدينار الذهبي الكبير : وهو يفوق في قيمته الدينار الذهبي العادي ، وهو يزن مائة دينار من الذهب[٧] .

الدينار الفضي : وكان هذا الدينار يتكون من عشرة دراهم صغيرة[٨] في تجزئة إلى النصف والربع والثمن [٩] .

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٣٧، ١٤٣، ١٤٩ ، ابن عذارى المراكشي : البيان ج٤ ص ٢٦ – ٢٧

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان ج٤ ص ٢١

(٣) على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ص٤٩

(٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص٢٠٧

(٥) على بن يوسف الحكيم : نفس المصدر السابق ص ٢٠٤ – ٢٠٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٢١٩

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص٢٩٤ ، الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج ١ ص٢٨٩

(٧) المقري : أزهار الرياض ج١ص٣٩ ، المنونى : ورقات عن حضارة المرينيين ص١٢٨

(٨) على بن يوسف الحكيم : نفس المصدر ص٨٥ ، الجزنائى : جني زهرة الآس ص٦٢ ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج٢ ص٤٣٨ المنونى : نفس المرجع ص١٢٧

(٩) على بن يوسف الحكيم : نفس المصدر السابق ص٥٨-٦٢

الدرهم الفضي الكبير : يزن ٢٤ حبة من حبوب الشعير ، ويتجزأ إلى ثلاثة دراهم صغيرة وهو يساوى نصف الدرهم النقرة[١] المستعملة بمصر والشام[٢] . وبذلك يصبح الدينار الواحد يعادل ٦٩درهماً صغيراً[٣] .

الدرهم الصغير : كان يزن ٨ حبات من الشعير[٤] . وكان هذا الدرهم يتجزا إلى "نصف درهم "أو ما يطلق عليه "قيراط "[٥] ووزنه ثلاث حبات من الشعير ، وهو يساوى سدس الدرهم النقرة[٦] وكان الدرهم الصغير معروفاً في المغرب الأقصى[٧] وكان له أجزاء هي" القيراط"[٨] والفلس[٩] وكان الفلس(يزن حبة واحدة) مربع الشكل معتدل الزوايا، وهو مصنوع من مادة (النحاس) [١٠]

وقد رأى المقريزي أن هذه المسكوكات الصغيرة لا يجب أن يطلق عليها لفظ عملة[١١] . وكانت المعادن اللازمة لسك العملة مثل الذهب متوفر في بلاد المغرب أو

---

(١) الدرهم النقرة : هي عملة ضربت بمصر والشام ويكون من ثلثاها من الفضة، والثلث الباقي من النحاس، وتطبع بدور السلطانية على نحو الدنانير. (الشرباصى: المعجم الاقتصادي ص١٦٠)

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج٥ ص١١٧ ، على بن يوسف الحكيم : نفس الصدر السابق ص٨٩

(٣) ويقول الحكيم " وفيها أي –الأوقية –من الدراهم الصغار اليعقوبية الجارية الآن تسعة وستون درهما. (الحكيم : نفس المصدر ص١٠٤)

(٤) محمد المنونى : ورقات عن حضارة المرينيين ص١٢٧ ، هامش (٢١٧) ، نقلاً عن تقرير عن تحقيق المد النبوي بالمكتبة الملكية الرباط – ضمن مجموعة تحمل رقم (١٨٧٧)

(٥) الحكيم : نفس المصدر السابق ص١٠١ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص٣١٧ فيذكر صاحب الذخيرة السنية عند حديثة عن أثمان بعض أنواع الأسماك بأن : الشابل الطري "بقيراط وثلاثة دراهم " أي أن القيراط يساوى ثلث الدرهم (ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص١٠٤) محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المرينى ص٢٩٩

(٦) العمري : مسالك الأبصار ص١٢٦ ، الحكيم : مصدر سابق ص٢٠٥ ، القلقشندى : مصدر سابق ج٥ ص ١٧٧ ، محمد عيسى الحريري : مرجع سابق ص ٢٩٨

(٧) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص٣٠٢ ، ٣٨٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٩

(٨) القيراط : وزنة ثلاث حبات تقريباً من أوسط حب الشعير (الحكيم : مصدر سابق ص١٠١)

(٩) الفلس : يزن حبة واحدة . (الحكيم : نفس المصدر ص٩٣)

(١٠) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ص٢٨٩

(١١) يقول المقريزي "وأما الفلوس فانه لما كان في المبيعات من محقرات تقل عن أن تباع بدرهم. أو جزء منه ، احتاج الناس من اجل ذلك في القديم والحديث من الزمان إلى شيء سوى نقدي الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات ، ولم يسم أبدا على وجه الدهر ساعة من نهار فيما عرف من أخبار الخليقة نقداً ولا أقيم قط بمنزله أحد النقدين". (المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٠م ص ٦٦)

يمكن استيرادها من بلاد السودان الغربي[١] . والفضة كانت تستخرج في بلاد المغرب من مدينة " زجندر "[٢] وحصن وركناس "[٣] ، وقد ظلت النقود تتمتع بقوتها ، حتى طرأ الفساد بسبب تعرضها للتزييف ، وكان دور اليهود في الإقراض بالربا[٤] .

- **السفاتج والصكوك :**

إلى جانب التعامل بالنقد ، استعملت وسائل أخرى مثل " السفاتج والصكوك "[٥] في مختلف الأنشطة التجارية . عرفت أسواق الدول الإسلامية منذ وقت مبكر استعمال السفاتج ، وهى أن تعطى مالاً لرجل له مال في بلد تريد أن تسافر إليه فتأخذ منه " سفتجة " لمن عنده المال في ذلك البلد فيعطيك مثل مالك الذي سبق أن دفعته قبل سفرك . وهى من المعاملات الورقية المستخدمة في المجال التجاري ، وتكون بمثابة أمر خطى يدفع بواسطته مقدار معين من النقود على الشخص المسمى فيه[٦] . ولقد

---

(١) عبد العزيز عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية، دار السلمي، ط١، المغرب، ١٩٥٧-١٩٥٨م ، ج٢ ص ٢٦.

(٢) زجندر : مدينة صغيرة بالسوس الأقصى يستخرج منها معدن الفضة ويسكنها الذين يستخرجون هذا المعدن وهى معروفة باسم مدينة المعدن . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٦١)

(٣) حصن وركناس : يقع هذا الحصن بالقرب من مكناسة . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٦٢)

(٤) الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٨٢ ، ٩٦ وقد استخدم أيضا أبو يحيى بن الشيخ أبى حفص الذي كان واليا على بطليوس في الأندلس جنوب موقعة الزلاقة ، من قبل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م في فداء أسرى المسلمين حيث دفع ثلاثمائة دينار جشمية . ولم يكن التزييف قاصراً على الدولة فقط بل تم القبض على عدد ممن يزورون الدراهم الموحدية . كما قام نصارى الأندلس واليهود بتزييف العملة الموحدية . وكان يتم التزييف بإضافة معادن رخيصة إلى فضة الدراهم . (ابن عذارى المراكشي : البيان ، قسم الموحدين ص ١٠٩ ، التادلى : التشوف إلى رجال التصوف ص ٢٢٩ - ٢٣٠)

Alfred Bel : contribution al'etude des dirhems de L'epoque Almohada d'apres un groooooooupe Important des ces monnaies. , recemment decouvert a Telmcen , He paris 1933, Tome XVI Fox 1 el I 1 . p. 5 7

(٥) الصكوك : مفرده صك وهى كلمة معربة وكانت الأوراق تسمى كذلك لأنها تخرج مكتوبة من المحرر إلى الصيارفة بدفع مقدار من النقود لحامل الصك وهو الشيك المعروف حالياً . (محمد على الفاروقي : كتاب كشاف اصطلاحات الفنون ، تصحيح محمد وجيه وآخرون ، طبعة شيائك سيوسيس أف بنكال ١٨٦٣م ، مج(١) ص ٦٣٦ - ٦٣٧)

(٦) ابن منظور : لسان العرب ص ٢٤٧٥ ، عيسى بن الذيب : مرجع سابق (رسالة ماجستير)، ص ٢٦٠ .

استخدمها التجار المغاربة في المغرب الأقصى في معاملاتهم المالية الكبيرة ،(هي الشيك السياحي Traveller Cheque) .

وذلك لان التعامل بالمبالغ الكبيرة أصبح يواجه بعض الأخطار وخاصة من ناحية نقلها من بلد إلى آخر ، لذلك لجأ التجار إلى استعمالها حتى لا تتعرض أموالهم للصوص وقطاع الطرق .

أما الصك : فقد أورد " ابن قتيبة "[1] روايات تؤكد استخدام الصك في التعامل منذ صدر الإسلام . ولم يقتصر استخدام الصكوك على التعامل التجاري بل استخدمه الأمراء والخلفاء في بعض الأحيان لدفع المنح والعطايا إلى الشعراء والفقهاء والمقربين[2] . وكان على محرر الصك أن يتحرى الدقة عند كتابته ، حيث يكتب فيه اسم صاحبه ومقدار المبلغ الواجب دفعة وموعد الاستيفاء ، وقد يؤرخه ويختم عليه بختم خاص ويصدق عليه[3] .

وكانت هذه الصكوك تثبت في الدواوين باعتبارها من النفقات التي تم صرفها من بيت المال ، وكان صرف الصك من الصيارفة يقتضي أخذ عمولة عليه وكانت الصكوك في العادة تصرف أما عند الصراف أو في بيت المال[4] .

وقد استخدمت السفاتج داخل الأسواق في دفع الديون ، وكان الهدف هو نقل النقود من مكان لمكان دون التعرض لأخطار الطريق[5] . فهي وسيلة للحيلولة دون نقل المبالغ الكبيرة من بلد لأخر . وكان يستخدم أيضا في تحويل الدين من شخص

---

(١) أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة : المعارف ، تصحيح وتعليق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي المطبعة الإسلامية بمصر ، ط (١) القاهرة ١٩٣٤م ص ٦٤

(٢) عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى : المنتظم في تاريخ أخبار الإمام ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩ مج ، ط (١) حيدر أباد ١٩٣٨م مج ٦ ص ٢٨٣ – ٢٨٤ ، عيسى بن الذيب : نفس المرجع (رسالة ماجستير) ص ٢٦٠ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥ .

(٤) عيسى ابن الذيب : مرجع سابق ص ٢٦١ . يذكر أن " تجار سجلماسة كانوا يتبادلون فيما بينهم صكوكاً تتراوح قيمتها ما بين أربعين ألف ديناراً " (الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٧ – ٣٨) " ولقد رأيت بأودغست صكاً فيه ذكر حق بعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار . (ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٩)

(٥) محمد على الفاروقي : كتاب كشاف اصطلاحات الفنون ، مج (١) ص ٦٣٧ .

لآخر ، وأصبح من الممكن تصفية الحساب بين تجار من مدن وأقاليم مختلفة ومتعددة دون الحاجة لنقل النقود ، وعلى الرغم من أن فقهاء المالكية كرهوا إحالة السفاتج أو الصكوك على الصيارفة واعتبروها ربا[١] .

إلا أن هذا لم يمنع التجار من استخدامها ، وأشارت أوراق " الجينيزة "[٢] ، إلى أن " السفاتج " استخدمت في التعامل التجاري بين بلاد المغرب والأقاليم الأخرى المجاورة .

- **الحوالات :**

هي مأخوذة من التحويل بمعنى الانتقال ، والمقصود هو نقل الدين من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه[٣] . وهى تعنى أيضاً أن يعطى تاجر مالاً لمن له مالاً بالبلد الذي يريد أن يسافر إليه بأسعار صرف ذلك البلد[٤] . ويقوم الصيارفة في أغلب الأحوال بمهمة تحويل تلك الحوالات إلى نقود مقابل خصم نسبة من المبلغ المحول[٥].

ويرى الكثير من الفقهاء أن الحوالة هي نوع من أنواع الربا ، ولذلك نهوا عن التعامل بها[٦] فلا تصح الحوالة إذ كان الدين من الذهب ليأخذ بدلاً منه فضة، وذلك لوجوب تماثل الحقين في الجنس والقدر والحلول والتأجيل .

- **الصيارفة :**

هم مجموعة من الأفراد تتعامل في بيع وشراء وتحويل العملة نظير الفائدة ، وقد حرم المسلمون تعليم أبنائهم هذه المهنة حتي لايقعوا في شبهة الربا ، أما اليهود

---

(١) الونشريسى : المعيار المعرب ج ٦ ص ٣١٥ – ٣١٦ .
(٢) الجينيزة : كلمة تطلق على مجموعة من الأوراق والكتب والمخطوطات التي وجد أشهرها مدفونا في الكنس اليهودي في منطقة مصر القديمة والبساتين وتعود إلى الجماعة اليهودية في العصر الفاطمي والعصر الأيوبي ، وهى توضح مدى الحرية وحسن الجوار اللذين تمتعا بهما اليهود في ظل حكم المسلمين . (محاسن محمد الوقاد: اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجينيزة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩م ص ٥)
(٣) الشافعي : الأم ج ٣ ص ٢٠٣ ، ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ٣٦٣ ، عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب الأقصى ص ١٧٨ .
(٤) عاشور برشامه : علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب الأقصى والأندلس ص ٣٦٣ .
(٥) عاشور بو شامة : نفس المرجع ص ٣٦٤ .
(٦) الونشريسى: المعيار ج ١٢ ص ٦٤ ، الحكيم: الدوحة المشتبكة في معالم السكة ص١٠٩-١١٠

فيتعاملون بالربا مع غيرهم ولايتعاملون بينهم بالربا ، وكان على الصراف أن يكون على دراية تامة بشان أسعار صرف العملات والتغيرات التي تطرأ عليها ليتسنى لهم مقارنتها مع قيمة العملة المحلية .

فنجد صاحب كتاب الدوحة يعرفهم بأنهم جماعة الصرافين المستقرين بسوق الصرف والذين يشتغلون في صرف النقود وبيع المعادن النفيسة[١] . وقد امتد نشاطهم إلى القروض والرهن والحوالة . ولقد سيطر على هذا المجال بصفة عامة الصيارفة اليهود ، لما يترتب عن هذه المهنة من معاملات ربوية محرمة[٢] ، ومن هنا فقد وضح الفقهاء للتجار المحاذير والحدود الواجب الالتزام بها في التعامل مع الصيارفة اليهود في ذلك الميدان[٣] .

وقد ظهر ما يعرف بالحوالة على الصيارفة ضمن المعاملات التجارية ، فكان التجار المغاربة يدفعون لهم الدراهم ويأخذون الدنانير ، لشراء ما يريدون من بضائع ثم يرسلون من ابتاعوا منهم إلى الصيارفة المتعاملين معهم . ولعل أوضح مثال هو ما سئل عنه " الونشريسي " ومفاده أن التجار الصغار أصحاب الأسواق من الكتانيين والقطانين والزياتين وغيرهم ، كانوا اعتادوا دفع أموالهم إلى الصيارفة ويكتبونها عليهم بدنانير ويحيلون بها عليهم من يشترون منه ، وخوف بعض كبار التجار من قبول حوالتهم عليهم ، خشية ضياع حقوقهم[٤] .

ووردت نازلة في المعيار تحت عنوان " السلف بشرط الحوالة " وقد أجاب عنها الشيخ عبد الله العبدوسي[٥] فقال " مثل أن يسلفه دراهم أو طعاماً أو دنانير على أن يحيله بها على غريمه فلان ... " [٦] .

---

(١) الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ١٠٩ ، ١٣٣

(٢) الونشريسي: المعيار ج ٥ ص ٢٤٤-٢٤٦ ، ج ١٢ ص ٦٢، الحكيم: نفس المصدر السابق ص ١٣٥ – ١٣٧

(٣) الونشريسي : نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٢٤٤ ، ج٦ ص ٣٠٦

(٤) الونشريسي : مصدر سابق ج٦ ص ٣١٥ – ٣١٦ ، ٣٢٤ . وقد أجاب عنها أبو الفرج وهو معاصر للمازوري ، بأنها معاملة فاسدة وان شاعت وجب على السلطان قطعها لأنها ربا .

(٥) هو عبد الله بن معطى العبدوسي الفقيه والخطيب بجامع القرويين ، توفى سنة (٨٤٨ – ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م) (ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج ٢ ص ٤٢٥)

(٦) الونشريسي : مصدر سابق ج ٦ ص ١٣٠ .

- **المكوس (المغارم) :**

كانت " المكوس "[1] تحقق دخلا كبيراً لخزانة الدولة ، وهى ضريبة يفرضها القصر السلطاني[2] . وكانت بعض المكوس تفرض على السلع المارة في أماكن العبور[3] .

ولم يكن فقهاء المسلمين ينظرون إلى هذه الرسوم " المكوس " بعين الرضا ، لأنهم يرونها رسوماً غير شرعية[4] . نظراً لعدم وجود سند شرعي لها . كما كانت هناك الضرائب المعروفة باسم (القبالات)[5] . و قد استخدم هذا الاسم في كل من المغرب والأندلس ليدل على الضرائب التي كان يؤديها أصحاب الحرف أو تجار السلع الرئيسية[6] . وهناك ضرائب أخرى تفرض على السلع والمكاييل وغير ذلك[7] .

ولقد قامت في المغرب الأقصى دولة المرابطين (٤٦٣-٥٤١هـ /١٠٧١-١١٤٥م)[8]

---

(١) ابن مرزوق : المسند الصحيح ص ١٦١ ، حسن على حسن: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى ص ٣٥٧

(٢) المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ٣ أجزاء ج١ ص ٣٩ ، محمد عيسى الحريري: مرجع سابق ص ٢٨٠ – ٢٨١

(٣) حسن على حسن : مرجع سابق ص ٢٢٦

(٤) ابن القيم الجوزية : أحكام أهل الذمة: حققه وعلق على حواشيه طه عبد الرؤوف سعد ، دار ابن خلدون، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥م ج١ ص١٢٤. نعيم فهمي ذكى: طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية سنة ١٩٧٣م ص ٣٥٤ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٧٥ . القبالة : هو أن يجعل الشخص قبيلاً ، أي كفيلاً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه ، مقابل قدر معلوم يدفعه وهو ما يعرف بنظام الالتزام فيستفيد السلطان تعجيل المال، ويستفيد المتقبل الفرق بين ما دفعه وما حصله (محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، دار الأنصار ط (٤) القاهرة سنة ١٩٧٧م ص ٢٦١)

(٦) حسن على حسن : المرجع السابق ص ٢٢٥

(٧) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ص ٧٩

(٨) أسس دولة المرابطين عبد الله بن ياسين الفقيه المالكي وأبو بكر اللمتوني وبعد وفاة عبد الله بن ياسين وكل أبو بكر اللمتوني ابن عمه يوسف بن تاشفين وأرادوا أن يطبق شرع الله والقضاء على الضلالات والجهل بالدين . (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٨١ ، ابن خلدون : العبر ج٦ ص ٢٠٩)

وولاة الأمر يؤكدون المعنى الديني الذي تأسست عليه الدولة ، هو القضاء على الضلالات المنتشرة والجهل بأحكام الدين ، وإلغاء كل الرسوم والضرائب التي لم يرد فيها نص من كتاب الله أو سنة نبيه ، وقد ذكر ابن أبي زرع بقوله " وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزونية ، وترك ما اوجب الكتاب والسنة تركه "[1] .

ومن هنا كانت مصادره المالية هي الزكاة[2] والعشور[3] ، وجزية أهل الذمة[4] وأخماس غنائم المشركين[5] .

وكانت لهذه السياسة الحكيمة في بداية عصر المرابطين . أثرها في ازدهار الحركة التجارية ، ومضاعفة الإنتاج وزيادة دخل الفرد ، إذا كان طبيعيا أو تؤدى هذه السياسة إلى التخفيف عن كاهل التجارة مما يشجع التجار على المغامرة وارتياد الأسواق دون أي خوف ، ماداموا يؤدون عن أرباحهم ما يفرضه الدين من زكاة[6] .

ولقدالتزم المرابطون بأحكام الشرع ، ولم يفرضوا إلا ما جاء به الكتاب والسنة وألغوا ماعدا ذلك من الضرائب ، سواء في المغرب أو الأندلس[7] . أما في آخر فقد العهد كثرت الضرائب والمكوس[8] .

---

(١) ابن أبي زرع : نفس المصدر ص ٢٠.

(٢) الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة والنماء والطهارة . (السيد سابق : فقه السنة ، مجلد (١) ص ٢٣٥)

(٣) العشور : زكاة في عروض التجارة قدر نصاب وهو ٤/١ عشر قيمته والذمي ٢/١ عشر ويدفع القادم من أرض الحرب عشراً كاملاً (أبو يوسف: كتاب الخراج ، ص ١٣٥ – ١٤٠، محمد حسن أبو يحيى : نظام الأراضي في حدود الدولة الإسلامية ، ط ١ ، دار عمار ، عمان ١٩٨٨م ص ٢٢٤ –٢٢٨)

(٤) جزية أهل الذمة : مبلغ من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب . (السيد سابق : فقد السنة المجلد (٣) ص ٤٩-٥٢)

(٥) أخماس غنائم المشركين : المال المأخوذ من أعداد الإسلام عن طريق الحرب والقتال . (السيد سابق : فقه السنة المجلد (٣) ص ٥٤ – ٥٩ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ج ٢ ص ٢٠)

(٦) البكري: المغرب ص١٦٤، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ١٠٦، ١٠٧.

(٧) عيسى بن الذيب : مرجع سابق (رسالة ماجستير) ص ١١٣

(٨) قد فرضت دولة المرابطين في أواخرها مكوس على أماكن العبور وقد اعترض "ابن تومرت" على من طالبة بالمكوس حين أراد عبور " وادي أم الربيع " ووضح البيذق ذلك قائلا : " ثم جدبنا حتى وصلنا وادي أم الربيع .. فأردنا الجواز فمنعونا حتى نعطى المكس ... وقالوا لنا

ولم يكن المتقبل والخراص يحصل على راتب من الدولة ، إنما جعلت أجرهم على أهل الزراعة والأموال[1] . وتعسف المتقبلون في جباية ضريبة الرحاب[2] .

أما عند قيام الدولة الموحدية ، حرص الخليفة " عبد المؤمن بن علي " على إلغاء الرسوم والمكوس التي تخالف الشرع والتي فرضها المرابطون[3] . فقد اعترض ابن تومرت على من طالبه بالمكوس حين أراد عبور " وادي أم الربيع " [4] .

وقد صدرت الرسائل الرسمية ، تعبر عن رفض الخليفة " عبد المؤمن بن على " لكل أنواع المكوس والقبالات التي فرضها المرابطون لمخالفتها الشرع ومن هذه الرسائل الرسالة الصادرة من " تينملل "[5] . في السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٣م وهى موجهة إلى جميع الطلبة بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة ، جاء فيها " ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتحجير المراسي وغيره ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرما وإفكاً وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلاكاً... هل قام هذا الأمر العالي إلا لقطع أسباب الظلم وعقله؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه ؟ وإجراء العدل على غاية شأوه وطلقه ؟"[6] .

تعطوا على كل رأس كذا وكذا ... وصاح عليهم حتى جزنا وكان في بعض ما قال لهم إنما السبيل للمسلمين ، وانتم تقطعونها وهذا غير جائز في الشرع . (البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٤٦ ، عيسى بن الذيب : مرجع سابق ص ١١٥) وقد كانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة ، عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل وكانت القبالة على كل شيء دق أو جل كل شيء على قدره . (الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٢٣٥)

(١) المتقبل : هو اسم من يكون مسئول عن الضريبة . الخراص : هو الذي يقوم بتدبير الثمار خاصة في النخل والكروم وغيرها . وقد ذكر ابن عبدون " أن المتقبل شر خلق الله ، وأنه خلق للضرر يجرى ويسعى لضرر المسلمين أبدا ، ويفتح أبواب الضرر عليهم ، ويغلق أبواب الخير والنفع عنهم " كما يستوي عنده في الصفة الخراص . (ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة ص ٣٠-٣١ ، عيسى بن الذيب : مرجع سابق ص١١٤)

(٢) الرحاب : ضريبة تدفع على أسواق المواشي والحبوب . (ابن عبدون : نفس المصدر ص٣١ ، عيسى بن الذيب : نفس المرجع ص١١٤)

(٣) عيسى بن الذيب : نفس المرجع ص١١٥

(٤) البيذق : أخبار المهدي ص٤٦

(٥) تينملل : هي إحدى الحصون الواقعة في جبل درن ويعد هذا الحصن أمنع الحصون وذلك لأن الصعود إليه صعب إذ لا يصعد إليه إلا من مكان ضيق جداً . وقد اتخذه ابن تومرت في أول ظهوره مخزناً لأمواله ودعوته ... بعدما زاد في تحصينه وبهذا الحصن قبره . (الإدريسي : نزهة المشتاق ص٢٣٠)

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص١٥٦ - ١٥٧

وقد اختلفت هذه المكوس والضرائب باختلاف المراحل التي مرت بها الدولة الموحدية ، حيث تنقسم دولة الموحدين إلى عصرين ، عصر القوة والازدهار . وعصر الضعف والتدهور الذي انتهى بسقوط الدولة الموحدية .

العصر الأول : القوة والازدهار (٥٤١ - ٦٠٩هـ / ١١٤٥-١٢١٢م) ، لم تفرض خلال هذا العصر أي مكوس أو ضرائب ، إلا ما تفرضه الشريعة الإسلامية . وقد ركز " عبد المؤمن بن على " على ما توجبه السنة وتطلبه[١] . فاقتصروا على الزكاة والعشور وأخماس المعادن والغنائم والخراج[٢] .

ولقد اهتم " عبد المؤمن بن على " وخلفاؤه بتعقب عمال الجباية ومحاسبتهم وكانوا يسألون عنهم الرعية[٣] . ويذكر الإدريسي بقوله " فلما ولى المصامدة (الموحدون) وصار الأمر إليهم قطعوا القبالات بكل وجه وأراحوا منها ، واستجلوا قتل المتقبلين لها ، ولا تذكر الآن القبالة ذكراً في شيء من بلاد المصامدة[٤] .

ويذكر ابن خلدون عن اتساع موارد الدولة الموحدية في المغرب "وقطر المغرب وإن كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك . وكانت أحواله في دولة الموحدين متسعة وجبايته موفورة "[٥] .

وفى عهد الخليفة " يوسف بن عبد المؤمن " كثرت النعم في سائر بلاد المغرب والأندلس وعم الرخاء ، ونمت الجبايات والخراج وانتعشت حركة العمران في العاصمة الموحديه (مراكش)[٦] . وقد عاقب الخليفة " يوسف بن عبد المؤمن " سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م مشرف المخزن (بيت المال) وعامل مدينة فاس نتيجة

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٢٧ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٣ .

(٢) الخراج : على الأرض التي فتحت عنوة وتركت في أيدي أهلها نظير خراج معلوم أما الأرض التي اسلم أهلها عليها طوعاً أو فتحت عنوه وقسمت بين الفاتحين أو أحياها المسلمون. (السيد سابق : فقه السنة المجلد الأول ص ٢٥٤، عز الدين احمد موسى: النشاط الاقتصادي ص ١٧٣)

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ١٧٨، عبد الواحد المراكشي: المعجب ص٢٨٥-٢٨٦

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٧

(٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٤٨-٣٥١ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب، قسم الموحدين ص ٧٤ ، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ج ٥ ص ٢٨ .

اختلاسهم وألزمهم برد الأموال إلى المخزن وعين عليهم رقباء حتى يؤدون ما عليهم بأقساط[١] .

وفى عهد الخليفة " يعقوب بن يوسف عبد المؤمن المنصور " ، كان يجلس للنظر في المظالم بنفسه لإجراء العدل ، واتخذ مجلسة بالمسجد الجامع ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وكان يجلس فيه من الضحى إلى قرب الزوال . ويستمع إلى الدعاوى المدعين من السوقة والتجار[٢] . وقد التزم " أبو يوسف المنصور " بأحكام الشريعة وسننها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٣] . وكان يحرص على اختيار القائمين على أعمال الجباية من الرجال ذوى الأمانة والنزاهة[٤] .

وفى عهد الخليفة الموحدى " أبى محمد الناصر " قد شكا إليه أهل فاس سنة ٦٠٤هـ ١٢٠٧م من ظلم عامل الخليفة على فاس " أبى الحسن بن أبى بكر " وكذلك اشتكى أهل مكناس من ظلم عامل الخليفة على مدينة مكناس " أبى الربيع بن أبي عمران " فأمر بالقبض على عامل فاس ومكناس واستصفاء أموالهما[٥] . فقد اهتم الخليفة الناصر في مساءلة وإقصاء العمال المرتشين والظالمين[٦] .

وفى أواخر عهد "الناصر" وبداية الأزمة المالية جعل السلطة المالية في يد مشرف مالي أطلق عليه (إشراف البرين) (المغرب والأندلس) وضم الأعمال وتفقد الأشغال[٧] . وقد كان الناصر يحاسب عمال الجباية باستدعائهم إلى الحضرة بأعمالهم وكتابهم المقيدين لأشغالهم[٨] .

---

(١) بيت المال في دولة الموحدين يطلق عليه (المخزن) ، أما المسئول عن بيت المال فيطلق عليه مشرف المخزن. (ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٣٠، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ص ١٣٢ ، محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ص ١١٥)

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان ، قسم الموحدين ص ١٤٥ ، محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ١٤٣ .

(٣) ابن عذارى المراكشي : نفس المصدر ص ٢٠٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ص ٥٧ ، المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ ، محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ٢٣٩ .

(٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٥٠.

(٥) ابن عذارى المراكشي : مصدر سابق ص ٢٢٥-٢٢٦ .

(٦) محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ص ٣٢٥

(٧) ابن عذارى المراكشي : مصدر سابق ص ٢٥١ . يطلق على عامل الجبايات صاحب الأشغال . (ابن خلدون : المقدمة ج١ ص ٢٤١ -٢٤٥)

(٨) ابن عذارى المراكشي : نفس المصدر السابق والصفحة .

وفى ظل هذه الرقابة المحكمة من خلفاء الموحدين ، نشطت التجارة الداخلية فى المغرب الأقصى فـي العصـر الأول (٥٤١-٦١٠هـ /١١٤٥-١٢١٣م) لدولـة الموحدين ، وانتظمت موارد الدولة بالطرق الشرعية ، ولم تفرض مكوس (ضرائب) مخالفة لما ينص عليه الشرع .

أما العصر الثاني أو المرحلة الثانية (٦١٠-٦٦٨هـ / ١٢١٣ -١٢٦٩م) الضعف والانهيار بدأ يحيط بدولة الموحدين بعد موقعة العقاب ٦٠٩هـ / ١٢١٢م[١].

بدأت الأحوال المالية تتأثر في الدولة ، وتتهـار مـوارد الدولـة الاقتصـادية الضخمة تباعاً ، سواء بالمغرب أو بالأندلس[٢] ، ففي عهد " يوسف بن الناصر محمد " المكنى بالمستنصر بالله (٦١٠-٦٢٠هـ / ١٢١٣-١٢٢٤م)[٣] .

وفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ظهور طلائع بني مرين في أحواز مدينة فاس[٤].

---

(١) موقعة العقاب (٦٠٩هـ /١٢١٢م) : لقد انشغل الناصر محمد بقمع الفتن في بـلاد المغـرب وإفريقيا (تونس) وأراد ملك قشتاله الفونسو الثامن الانتقام لمعركة الارك (٥٩١هـ /١١٩٤م) فأنهى خلافاته مع القوى المسيحية واستنجد بالبابا وكون قوة مسيحية لمحاربة المسلمين ، وتحرك الناصر بجيش كبير وتم اللقاء في سهل مليء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع تسمى بالعقـاب وقد استولت الجيوش المسيحية على قلعة رباح ، فأمر الناصر بقتل قائدها يوسـف بـن قـادس الأندلسي بإيعاز من وزير الخليفة أبو سعيد بن جامع ، وارتاع الأندلسيين وتفرقـوا مـن ذلـك فضعف شأن " الناصر " وقد هاجم النصارى المسلمين بعنف وضراوة وتعتبر هذا الموقعة بداية لضعف شامل أصاب الدولة . (ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٥٥ -١٦٠ ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٨٣ ، المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، السلاوى الناصـرى : الاستقصاء ج١ ص ١٩١ ، محمد عبد الله عنان: مرجع سابق ص ٢٨٢-٣٠٢ ، عصام الدين عبد الرؤف الفقى : مرجع سابق ص ٢٧٥ - ٢٧٦)

(٢) محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ص ٣٢٨

(٣) يوسف بن محمد بن الناصر بن يعقوب المنصور بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عمره أربعة عشر عاماً واستمر حكمة عشر سنوات . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٦، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٩٦ -١٩٨ ، الذخيرة السنية ص ٥٤)

(٤) قد ذكرنا في هذا البحث ، في التمهيد ص ١٧ (في الهامش) عن بني مـرين. فيعـد هزيمـة الجيش الموحدى في محاربته لبنى مرين أطلق على هذا العام عام المشعلة حيث استتر الجند في دخولهم فاس بهذا النبات المسمى المشعلة فراراً من بني مرين . (ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ٢٨ ،ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٦٩) وقد شن المرينيين حملة عسكرية في نفس العام على رباط تازا (في جبال تازا وهى على الطريق بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط لبلاد المشرق) . (الحسن الوزان : وصف أفريقيا ص ٣٥٤ -٣٥٥)

وفى عهد الخليفة " أبا محمد عبد الواحد " المخلوع (٦٢٠هـ /١٢٢٢م)[١] أمر بمحاسبة ابن اشرفى صاحب المخزن (بيت المال) ، ومطالبته بالمال[٢] .

وفى عهد الخليفة العادل " أبو عبد الله بن يعقوب المنصور " (٦٢١-٦٢٤هـ / ١٢٢٤-١٢٢٧م)[٣] اضطرب الأمن وازدياد الفوضى ، وازدياد شأن بني مرين[٤] .

وتغلبهم على كثير من النواحي والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم، مثل فاس، تازا ، مكناسة، وذلك لكي يكفوا الغارة عنهم[٥]

وقيام عرب الخلط ، وشيخهم هلال بن مقدم وقبائل البربر هسكورة وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيث في نواحي مراكش وتخريبهم بلاد دكالة[٦] .

وفى عهدي الخليفتين " يحيى بن الناصر (٦٢٤ -٦٢٧هـ / ١٢٢٧-١٢٣٠م)[٧] " وأبى العلى إدريس بن يعقوب " الملقب بالمأمون (٦٢٤ -٦٣٠هـ /١٢٢٧-١٢٣٢م)[٨]

---

(١) هو أبو محمد عبد الواحد ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وكان قد تجاوز الستين عاماً وهو من اصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وتم اختياره لان المستنصر كان دون عقب أي (أولاد) ولم يستمر حكم محمد عبد الواحد سوى أشهر من ذي الحجة ٦٢٠هـ ، وتم خلعه في شعبان ٦٢١هـ ، وتم قتله . (عبد الواحد المراكشي: المعجب ص١٨٧، ابن أبى زرع: الأنيس المطرب ص ١٦٢ -١٦٣، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص٢٥١-٢٥٢، ابن عذارى المراكشي : البيان ص ٤٧)

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٥١

(٣) هو أبو عبد الله بن يعقوب " استمر حكمه ثلاث سنوات وقد تولى بعد خلع عبد الواحد وقتله وكان واليا على مرسية بالأندلس . (ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٢)

(٤) ابن ابي زرع : المصدر السابق ص ٢٨٨ -٢٨٩ ، الذخيرة السنية ص ٣٧

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٧٠

(٦) دكالة : تبدأ من نهرُ تانسيفت غرباً، وتنتهي إلى المحيط الأطلسي شمالاً، والى نهر أم الربيع جنوباً. (الحسن الوزان: وصف أفريقيا ص١٥٧ الهامش، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٢)

(٧) يحيى بن الناصر : اختاره الموحدون بعد مقتل العادل وإرسالهم البيعة للمأمون خوفا من المأمون ، وتم عقد البيعة له في مراكش وظلت فترة حكمة في صراع مع المأمون . (ابن عذارى المراكشي : البيان ، قسم الموحدين ص ٢٥٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٤ ، ١٦٧)

(٨) المأمون: كان والياً على أشبيلية وبعد خلع وقتل أخيه العادل تم عقد البيعة له ثم نكسوا البيعة، فقدم من الأندلس ومعه قوة نصرانية (ابن أبى زرع :الأنيس المطرب ص١٦٧ ، ابن عذارى المراكشي :البيان ، قسم الموحدين ،ص٢٦٥ ، ابن الخطيب : الإحاطة ج١ ص٤١٩)

حيث أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، والى الفتك بأخيه العادل وأنهم صدعوا بأمره وقتلوا " العادل " وكتبوا ببيعتهم إليه[١] . ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانتقامه ، فنكثوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر[٢] .

وفى عهد " الرشيد بن المأمون بن المنصور " (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ/ ١٢٣٢ - ١٢٤٨م)[٣]

رفع المغارم عن مدينة مراكش[٤] . وازدياد قوة بني مرين بزعامة الأمير " محمد بن عبد الحق "[٥] . وفى عهد السعيد بن أبو الحسن " (٦٤٠-٦٤٦هـ/١٢٤٢-١٢٤٨م)[٦] .

وعهد " حفص عمر المرتضى "(٦٤٦ -٦٦٥هـ /١٢٤٨-١٢٦٦م)[٧] ، وأبو دبوس الواثق بالله ٦٦٥ -٦٦٨هـ /١٢٦٦ -١٢٦٩م[٨] . الذي قتل المرتضى، ثم تنتهي بقتل أبو دبوس على يدي المرينيين وسقوط الدولة الموحدية .

فقد تولى الأمير " أبو بكر بن عبد الحق " وتغلب على الموحدين ودخل مدينة مكناس ٦٤٣هـ /١٢٤٥م تم خلع طاعة الموحدين وبايعوا بني مرين[٩] ودخلوا فاس

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٦-١٦٧

(٢) ابن عذارى المراكشي: البيان، ص٢٥٣ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص١٦٤-١٦٧

(٣) الرشيد بن المأمون : بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المأمون عند عودته بجيشه بعد حصار مدينة سبتة . (ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ٤١٧، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٣، ٢٥٤)

(٤) قرر الرشيد ابن المأمون رفع المغارم عن مدينة مراكش عند عودته مع جيشه بعد حصار مدينة سبتة ، حيث أن اخو المأمون حاكم سبتة أعلن الخلافة سنة ٦٢٩هـ وبعد حصاره مدينة سبتة فر إلى الأندلس ومات المأمون عند عودته من حصار سبتة ، وتولى الخلافة ابن المأمون الرشيد عند عودة الجيش فأراد أن يطمئن أهل مراكش فرفع عنهم المغارم . (ابن عذارى : البيان ص ٢٨٤-٢٨٥)

(٥) محمد بن عبد الحق : تولى إمرة بني مرين وقتل في عهد الخليفة الموحدى السعيد سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م بعد أن انتصر جيش الموحدين على جيش المرينيين وكان الأمير محمد بن عبد الحق قد انتصر على جيش الموحدين سنة ٦٣٩هـ /١٢٤١م في عهد الرشيد (ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٣٧ ، ٥٩ - ٦٣، الأنيس المطرب: ص ٢٨٨ -٢٩٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٧٠ -١٧١)

(٦) أبو الحسن بن أبي العلا إدريس يعقوب المكنى بالسعيد : تولى الخلافة بعد موت أخيه الرشيد . (ابن عذارى المراكشي : البيان ص ٣٥٨ - ٣٥٩)

(٧) أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم بن يعقوب بن يوسف المنصور : كان والياً على سلا وأخذت له البيعة وتلقب بالمرتضى وفترة حكمة تسعة عشر عاماً. (ابن عذارى : البيان ص ٣٨٩ - ٣٩٠)

(٨) أبو العلاء إدريس بن عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن مكنى بأبي دبوس . (مجهول : الحلل الموشية ص ١٢٧ ، ابن عذارى المراكشي : البيان ص ٤٥٤)

(٩) ابن عذارى : البيان ص ٢٧٦-٢٧٨ ، ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٦٦ ، مقلد الغنيمى: موسوعة تاريخ المغرب ، مكتبة المدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ج٥ - ج٦ ، ص ٢٠٦ -٢٠٧

سنة ٦٤٦هـ /١٢٤٨م[١] . وسلا ورباط الفتح سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م وفتح سجلماسة سنة ٦٥٥هـ /١٢٥٧م وبهذا سيطر المرينيين على مدن شرق وشمال المغرب الأقصى[٢] .

وتولى الأمير " يعقوب بن عبد الحق " بعد موت أبو بكر ، فاخضع منطقتي آنفا[٣] وتامسنا[٤] . وانتصر على قوات المرتضى في موقعة أم الرجلين سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م[٥] .

ولم يبق أمام يعقوب بن عبد الحق إلا مراكش عاصمة الموحدين ورمز ملكهم ، ولجأ أبى دبوس لمساعدة أبى يعقوب له ضد المرتضى وأن يتنازل ليعقوب عن نصف الأراضي التي استولى عليها أبو دبوس [٦] ، ولما تمكن أبو دبوس من اقتحام مراكش والقبض على المرتضى وقتله في صفر ٥٦٥هـ / نوفمبر ١٢٦٦م ، ثم تنكر للأمير يعقوب فخسر معركته مع المرينيين سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م[٧] ، وتم قتل أبو دبوس سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م[٨] ، وبهذا انتهت الدولة في هذه المرحلة ولم تلتزم بالشرع بفرض الجبايات ، بل الصراعات أدت إلى فرض المغارم واضطرابات وصراعات .

---

(١) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ٧٤ -٧٥ ، الأنيس المطرب ص ٢٩٤ -٢٩٦ .
(٢) الحميري : الروض المعطار ص ٣٠٥ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٩٨ .
(٣) مدينة أنفا : هي حالياً الدار البيضاء ، قد أسسها الرومان على ساحل المحيط الأطلسي وتقع على مسافة ٦٠ ميلاً شرق مدينة أزمور ، وأراضيها خصبة . (الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج ١ ص ١٩٧)
(٤) تامسنا : هي الأراضي الواقعة بساحل المحيط من نهر أبى الرقراق إلى أم الربيع وهى من إقليم فاس. (الحسن الوزان : نفس المصدر ص ١٩٤ ، الصديق بن العربي : كتاب المغرب، الجمعية المغربية للتأليف ، دار الغرب الإسلامي ط٢ بيروت ١٩٨٤م ص٩٧)
(٥) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص٩٤-٩٦ ، الأنيس المطرب ص٣٠١-٣٠٢ ، ابن عذارى المراكشي: البيان ص٤٣٣. وترجع تسمية المعركة بهذا الاسم لوقوعها عند بطن وادي أم الربيع في منطقة تنحسر عنها مياه الوادي ، فتبدوا وكأنها أرجل فسميت الموقعة بأم الرجلين . (ابن أبى زرع : الأنيس ص٣٠١ - ٣٠٢ ، محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١)
(٦) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ١٠٩
(٧) ابن أبى زرع : نفس المصدر ص ١٣١، الأنيس المطرب ص ٣٠٥ ، ابن الأحمر : روضة النسرين ص٢١ . وكان أبو دبوس قد استعان بالأمير " يغمر آسن بن زياد " أمير بني الواد في تلمسان . (ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ١٣١)
(٨) مجهول : الحلل الموشية ص ٦٩ - ٧١ ، ابن أبى دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ص ١٢٩، الناصري : الاستقصا ج٣ ص ٢٩ ، ابن خلدون : العبر ج٦ ص ٢٦٠ - ٢٦١، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب، قسم الموحدين ص ٤٦٠-٤٦٨ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٣٠٤ - ٣٠٧ ، عقيلة مراجع : سقوط دولة الموحدين ص ٢٧٤ - ٢٧٥